من عيـــون التـــراث العـــربى :

ابن عبد ربه وكتابه العقد الفريد

دراسة وتحقيق مع تحليل لبعض النصوص

بقـــلم

د٠ عبد القـــادر رزق الطـــويل

مدرس الأدب والنقـــد

بكلية الدراسات الاسلامية والعربية

للبنـــات بسوهاج

تقـديم وتمهيـد :

الحمـد للـه رب العالمين ، أسـبغ نعمـه ظاهـرة وباطنـه ، وخص الانسان بمـزية البيـان ، وفضله على سـائر خلقـه ... والصـلاة والسلام على رسوله المـكرم الذى أعطـاه الله جـوامع الـكلم .

وبعـد :

— ١ —

فهـذه دراسة تستهدف عيـون التراث العـربى ، وتكشف عمـا فيـه من ثـراء فكـرى ، وتلقى الضـوء على الرجـال الذين اهتموا بـه ووضعوه نصـب أعينهم جمعـا وتدويناً ، ثم اختيـاراً وتصنيفاً . ليكون القـديم مرتكزا يعتمد عليـه الجـديد فى وثبتـه وانطلاقه .

وسنمهد لهـذه الدراسة بكلمة عن تراث أمتنـا العربية ، وحرص علمائها عليـه ، وسهرهم الليـالى على جمعـه وتدوينه ، والمنهـج العلمى الذى اتبعـوه ، والمراحل التى مـرت بهـا عمليـة الجمـع والاختيـار حتى استوت لنـا هـذه الكنوز قائمة على سوقها تمـدنا بالمعرفة فى كـل عـلم وفـن ممـا أنتجته قـرائح الآبـاء والأجداد مستمدين العـون من رب العبـاد ، فنقول وبالله التوفيق والسـداد .

— ٢ —

من خصائص الأمـة العربية أنهـا أمـة فصاحة وبيـان ، ولـذا أنزل الله فيهـا وبلسانها القـرآن الكريم ، بلسـان عـربى مبين ،

واقتضت حياتهم البدوية أن يكون البيان طبيعة فيهم تملبه عليهم هذه الحياة بجميع مظاهرها ، وتزكى فيهم الشعر ، والخطب ، وإرسال الحكمة ، وضرب الأمثال كلما اقتضت الضرورة شيئا من ذلك ــ يقول الأستاذ أحمد أمين(١) : « كان العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ينتجون أدباً : شعراً ونثراً فيما يعرض لهم من مناسبات ، وما يجد من أحداث ، تدعو دواع للخطبة فيخطبون ، وللمثل فيضربون ، وللشعر فيشعرون » .

وكان يقابل عملية الانتاج عملية أخرى مكملة لها ، ولازمة لبقاء نتاجها ، وهى حفظ ذلك النتاج وصونه من الضياع ، ولكن العرب كانت تلفهم الأمية لفاً عميقا حتى ليحدثنا القرآن الكريم بقوله تعالى : « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** »(٢) ، ولذا كانوا يعتمدون على الذاكرة ، ويقوم الحفظ عندهم مكان التدوين ، فكان العربى يتكىء بكل قواه على حافظته حتى لا يضل أو ينسى ، وهى فى الغالب يقل أن تنسى ، ويندر أن تخطىء(٣) .

وكانت رواية الأدب من العوامل الكفيلة بحفظ النتاج من الضياع ، وكان يقوم بها ــ أيام فشو الأمية ــ الرواة شفاهاً « وكان بعض هؤلاء الرواة محترفين الرواية منقطعين لها ، وبعضهم يروى ما سمع فى الحادثة أو الحوادث المعينة فى غير احتراف »(٤) .

---

(١) مقدمة العقد الفريد ط ٢ م لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٨ م .
(٢) سورة الجمعة : آية ٢ .
(٣) د. عبد الحميد المسلوت ، نظرية الانتحال ص٥ ، دار القلم بمصر .
(٤) أحمد أمين ــ المصدر السابق .

بداية الجمع والتدوين :

انقضى عصر الخلفاء الراشدين ، ولم يدون فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف الشريف ؛ ليكون مرجع الناس فى أمر دينهم ودنياهم ، فاذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة يفتونهم فيما اشتبه عليهم ، أو استشكل من أمر دينهم(٥) .

فلما كان عصر بنى أمية ، وانتشر الاسلام ، واتسع نطاق الثقافة ، وتم اختلاط العرب بالعجم فى البلاد المفتوحة ، وخاف المنصفون على التراث العربى الأصيل من أن يعتوره التحريف والتزييف بدأت عملية الجمع لكن فى نطاق ضيق ، إذ لم نعرف من شأن الجمع والتدوين إلا ما كان من اذن أمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » لأبى بكر محمد بن عمرو بن حزم فى تدوين الحديث ، واستقدام « معاوية » لـ « عبيد بن شربة » من « صنعاء » ، ليكتب له كتاباً فى « الملوك وأخبار الماضين » ، وأن « وهب بن منبه الزهرى » ، « وموسى بن عقبة » كتبا فى ذلك أيضا كتباً ، وأن « زياد بن أبيه » وضع لابنه كتابا فى مثالب قبائل العرب ، وأن « يونس الكاتب بن سليمان » ألف كتاباً فى الأغانى ونسبتها الى من عنى بها ، وغير ذلك من الكتب التى تجمع بين الجمع والتأليف ، وعموما فقد كانت حركة محدودة ، ولم تبلغ شأناً يذكر فى التدوين والتصنيف(٦) .

---

(٥) جواهر الأدب ـ سيد أحمد الهاشمى ج ٢ ص١٣١ ، ط التجارية سنة ١٩٦٤ .

(٦) راجع : سيد أحمد الهاشمى ـ المصدر السابق ، د. شوقى ضيف ـ العصر الجاهلى ص١٥٨ وما بعدها ، ط. المعارف بمصر .

فى العصر العباسى :

فلما كان القرن الثانى « نهاية الأموية وبداية العباسية » شهد حركة أدبية وعلمية واسعة النطاق ، واتسع النتاج العربى ، وظهر بجواره نتاجاً فارسيا ، وهنديا ، ويونانيا ترجم إلى العربية ، وبجانب ذلك أدب القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وأدب التوراة والأنجيل ، وبجوار الآداب الاسلامية آداب أخرى مترجمة ... وكلما كثر النتاج ، واتسعت مجالاته ، وتعددت أغراضه اتسعت عملية الجمع والتدوين .. ويطالعنا على رأس من تخصصوا فى ذلك : « أبو عمرو بن العلاء » « والأصمعى » يجمعون ما يتلقفون من العرب فى البوادى والحواضر ، و « ابن المقفع » وأمثاله يجمعون ما وصل إليه من أدب فارسى وهندى ، ويصوغونه صوغا عربياً يحاذون به النتاج العربى .

على أن عملية الجمع فى تلك المرحلة احتذت عملية الجمع فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، فلم يمض الا قليل من العصر العباسى حتى كانت لنا مجموعات ضخمة من الآدب المختلفة ، باللغة العربية ، ورأينا شعراً ونثراً ، وخطبا وأمثالا ، وحكما ونوادر ، وملحاً وفكاهات ، الى غير ذلك مما جمعه الجامعون ، على أنهم لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا وقيدوها باسنادها ، أو بلفظ أصحابها ، أو بلفظ رواتها .

— ٤ —

مرحلة الاختيار من المجموع وأسبابها :

فلما تجمع هذا التراث الضخم ، ووجد أنه من الصعوبة بمكان أن يحاط بهذا الكم الوفير ، ويصعب على المتتبع أن يستقصيه ، وأن الخاصة — فضلا عن العامة — ينوءون بحمله ،

برزت ظاهـرة الاختيار مما جمع ، واختيار أفضل ما روى ، ومن هنا برزت الموسوعات من المختارات .

ويعلل العلماء الدافع إلى الاختيار بأسباب منها :

١ ــ أن الأدب كان يرتبط إرتباطا وثيقاً بمجالس الخلفاء ، والأمراء ، وكان الأدباء بحاجة إلى استدرار المال من أيديهم ، وهم لا يعطون الا إذا سرهم الحديث وأعجبهم الشعر ، ولذا كان الأدباء يعكفون على اختيار ما يصلح لهذه المجالس مما يعجب ، أو يضحك ، أو يهز الأريحة .

٢ ــ أن هؤلاء العلماء والأدباء كان يعهد إليهم بتربية أولاد الخلفاء والأمراء ، فكانوا يتخيرون ماهو أنسب مما يربى الذوق ومكارم الأخلاق ، ويهجرون الفحش ، كما فعل الضبى فى مفضلياته .

٣ ــ ربما يكون الذى يختار شاعراً تروقه المعانى ، فيعكف على الشعر الكثير يستعرضه ، ويختار منه ما يصح أن يقوم به ملكاته ، ويتأدب به ، كما فعل أبو تمام فى ديوان الحماسة(٨) .

مراحلها وتطورها :

على أن عملية الاختيار خضعت ــ كسابقتها ــ لسنة النشوء والارتقاء :

---

(٧) راجع : أحمد أمين ــ المصدر السابق ــ المقدمة . د. شوقى ضيف ــ العصر الجاهلى .

(٨) راجع : أحمد أمين ــ المصدر السابق ــ المقدمة . د. شوقى ضيف ــ العصر الجاهلى .

(أ) فكانت فى أول الأمر ساذجة لا يعنى فيها بغير الاختيار : فمسألة من هنا ، ومسألة من هناك ، واستطراد لا ضابط له ، ومسائل من موضوع واحد متفرقة فى الكتاب ، ومسائل مجموعة ليس بينها موضوع ، وغير ذلك مما نراه مبثوثاً فى كتب الاختيار الأول ، مثل : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد .

(ب) ثم انتقلت عملية الجمع إلى خطوة أخرى فى الاختيار متجهة نحو الكمال والترتيب ، كما فى « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، إذ رتب المختارات وبوبها ، وجمع المتشابه تحت عنوان واحد ، وكذلك فعل ابن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » .

(ج) وبجانب هذا التطور فى الاختيار كان هناك اختيار يعنى بالنتاج العربى غالباً كما نراه عند الجاحظ والمبرد فى كتابيهما . وآخر يوسع فى اختياره فيجمع بين النتاج العربى والفارسى والهندى والتوراة والانجيل والزبور كما نراه عند ابن قتيبة فى عيون الأخبار .

(د) وقد خضعت عملية الاختيار أخيراً لذوق المؤلف فى تفضيله لموضوع بعينه يتجه نحوه ، وغرض يهدف إليه ، مما أوجد اختلافاً بين المختارات ، فالجاحظ مثلا يعنى مع الأدب بالأحداث الاجتماعية ، كالشعوبية مثلا ، بينما المبرد يعنى مع الأدب بالنحو والصرف ، ويهتم بأدب الخوارج بصفة خاصة ، وعموماً فقد اتسعت جميعها للهو ، والمجون ، والزهد وما الى غير ذلك من أغراض .

* * *

بقى أن نشير إلى أن هذه الحركة الهائلة لم تقتصر على المشرق ، فقد شهدت الأندلس حركة أدبية واسعة النطاق اتجهت

نحـو التـراث جمعـاً وتدوينا أو انتخابا واختياراً لمـا دون وجمع ، وتبـلور هـذا العمـل فى اتجاهين اثنين لـكل منهمـا غرض شريف .

ـ اهتـم أولهمـا بأدب الأندلس وتدوينه ونشره ، كمـا فعـل « الفتـح بن خاقان » فى « مطمـح الأنفس ، ومسرح التأنس فى ملـح أهـل الأندلس » ، وكـذا « ابن بسـام » فى « الذخـيرة » ، وأخـيراً « المقـرى » فى « نفـح الطيب » .

ـ واتجـه ثانيهما الى أدب المشرق ينقله لأهل الأندلس ، نراه واضحاً فى اتجـاه « الأمـالى » « لأبى العـلى القـالى » ـ نزيل الأندلس ـ والذى يعـد كتابه النـواة الأولى التى بذرهـا أبـو على فى بلاد الأندلس من عـلوم المشرق ، ولقى كتـابه هـذا اهتماماً من أدبـاء الأندلس ، وكـان من أعـلام هـذا الاتجـاه ـ أيضاً ـ « ابن عبد ربـه » فى كتـابه « العقـد الفـريد » ، « وكـلا المذهبين يكمـل بعضـه بعضـاً كمـا تفعـل الأمـم الحيـة الى اليـوم ، تدون أدبهـا ونتاجها ، وتنقـل اليهـا أدب غيرها ونتـاجه »(٩) .

وليس كمـا يقـول الأستاذ أحمـد أمين فى مقدمة طبعة لجنـة التأليف والترجمة والنشـر من أن « ابن عبد ربـه » تتلمذ على يـد « الأمـالى » ، لأن صاحب العقـد ولـد سنة ٢٤٦ هـ بينمـا صاحب الأمـالى ولـد سنة ٢٨٨ هـ بفـارق فى المولد بينهما يبلغ نحـواً من اثنين وأربعين عـاما صـار فيهـا ابن عبد ربـه مكتملا ساعة مولد أبى على القـالى ، فـاذا قدرنا أن أبـا على « ألف أماليه فى الثلاثين من عمـره ، فمعنى ذلك أنـه ألفـه قبـل وفـاة صاحب العقد بنحـو عشر سنوات ، وهـذا تاريخ كـان العقـد فيـه مشهوراً ذائـع الصـيت بين المشارقة والمغـاربة على السـواء .

---

(٩) احمد امين ـ المصدر السابق ـ المقـدمة .

تراثنا من المختارات وأثره :

وعلى كل حال فقد كانت عملية الانتاج ، ثم عملية الجمع ، ثم عملية الاختيار من المجموع ، كل أولئك خلف لنا تراثا أدبياً ضخماً ، وينبوعا فياضا من المعارف : من الشعر والنثر ، والخطب والأمثال ، والنحو والصرف ، والبلاغة والنقد وغير ذلك مما يحتاجه الأديب والناقد فى العون على استكمال عدته ، والالمام بوسائله .

والأمثلة من المختارات كثيرة لا تحصى ، نذكر منها :

١ ــ طبقات فحول الشعراء لابن سلام « ١٣٩ ــ ٢٣١ هـ » .

٢،٣ــ البيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ « ١٥٩ ــ ٢٥٥ هـ » .

٤ ــ الكامل فى اللغة والأدب للمبرد « ٢١٠ ــ ٢٨٥ هـ » .

٥،٦ــ عيون الأخبار ، وأدب الكاتب لابن قتيبة « ٢١٣ ــ ٢٧٦ هـ » .

٧ ــ العقد الفريد ، لابن عبد ربه « ٢٤٦ ــ ٣٢٨ هـ » .

٨ ــ الأغانى للأصفهانى « ٢٨٤ ــ ٣٥٦ هـ » .

٩،١٠ــ الأمالى ، النوادر ، لأبى على القالى « ٢٨٨ ــ ٣٥٦ هـ » .

وغيرهم كثير ممن لا يحصون عدداً ، وتمتلىء بهم المكتبة العربية ، وتزهى بهم عصور الثقافة أيام العباسيين الأول .

* * *

وسيكون محور دراستى هذه بمشيئة الله (ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ــ دراسة ، وتحقيق مع تحليل لبعض النصوص) ، متوخياً فى الدراسة الخطة التالية :

١ ــ التعريف بالمؤلف ، ورسم صورة له تبرز علمه ، ومكانته ، ومنزلته فى عالم الأدب .

٢ ــ رسم صورة للكتاب ، توضح منهجه ، وموضوعاته إجمالا ، وقيمة هذا الكتاب من الناحيتين الأدبية والتاريخية ، وأثره فى التأليف بعده .

٣ ــ مناقشة ما قيل فى تحقيق اسم الكتاب ، وما اتجه إليه بعضهم من خلو التسمية من كلمة « الفريد » ، وصفاً « للعقد » .

٤ ــ تحليل بعض المختارات من هذا الكتاب لاستنباط منهج ابن عبد ربه وأسلوبه ، والوقوف على بعض القضايا الأدبية والنقدية الهامة التى أثارها .

وعلى الله قصد السبيل ، ومنه العون والسداد ..

* * *

أحمد بن عبد ربه

صاحب العقد الفريد

٢٤٦ ــ ٣٢٨ هـ

نشأته وثقافته :

أبو عمر ، شهاب الدين ، أحمد بن محمد بن عبد ربه ، ابن حبيب ، بن حدير ، بن سالم القرطبى ، مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى(١٠) .

---

(١٠) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان جـ ١ ص٣٢ .

ولد ـ على التحقيق ـ فى العاشر من رمضان سنة ست وأربعين ومائتين ، بمدينة (قرطبة) أعظم مدن الأندلس ، وحاضره الأمراء الأندلسيين من بنى أمية ، وجامعة العلوم والفنون والآداب وقتذاك ، وفيها من ضروب اللهو والغناء ما يوافق مثلها(١١) .

ونشأ بها ـ أبو عمر ـ وتثقف ثقافة عصره من : فقه ، وتفسير ، وحديث ، ونحو ، وعروض ، وتاريخ ، وأدب .. كما عنى بالموسيقى والغناء .

وعكف على دراسة أدب المشارقة ، وتتبع آثارهم وأخبارهم شأن من عنوا من المغاربة بأدب المشارقة من أمثال صاحب « الأمالى » . ودرس على شيوخ الأندلس وعلمائها ونقل عنهم من أمثال : الخشنى ، وابن وضاح ، وبقى بن مخلد ، ولذلك نراه قد برع فى أدب المشارقة فى حين لم يعرف عنه رحلة إلى المشرق .

« وقد تأثر ابن عبد ربه بابن قتيبة ، وبخاصة كتابه : (عيون الأخبار) واستغله أعظم استغلال ، سواء فى ترتيبه وتبويبه ، أو فى مشتملات أبوابه ، وإن لم يصرح بذلك الا نادراً ،

وأخذ أيام العرب مما حكاه أبو عبيدة ، كما ورد فى شرح النقائض ، واقتبس من الجاحظ فى البيان والتبيين ، ومن المبرد فى الكامل ، والروضة ، ومن ابن المقفع ، ومن دواوين الشعراء ومن غير ذلك مما يصعب استقصاؤه »(١٢) .

---

(١١) المصدر السابق ـ ياقوت ـ معجم الأدباء ج ٣ ص٢١١ .
(١٢) جبرائيل سليمان غبور ـ ابن عبد ربه وعقده ، ط. لبنان .

ولم تقتصر ثقافته على ما قرأ وجمع من الثقافة العربية ، بل أضاف الى ذلك علم ما ترجم الى العربية من الثقافة الهندية ، والفارسية ، واليونانية ، كما ظهر له ميل نحو الدراسات العلمية التى ظهرت جلية فى تصنيف وتنظيم عقده .

واتصف — ابن عبد ربه — بصفات الندمان ، من حب للموسيقى ، وغرام بالصوت الحسن ، والوجه الحسن ، وميل إلى اللهو والغناء ، مما نرى أثره واضحا فى أدبه : شعره ، ونثره ، وكذا فى « كتابه العقد الفريد » الذى حوى ألوان الثقافة التى تثقف بها سواء أكانت دينية أو أدبية ، أو فنية نراها ظاهرة جلية فيه تعكس صورتها على صفحاته .

وقد كانت لابن عبد ربه صلات بكثير من أمراء الأندلس ، ربطه بهم ، ووثق مودته بينهم علمه وأدبه ، فقد لازم « الأمير عبد الله » الذى تولى قرطبة سنة ٢٧٥ هـ ونادمه زمناً ، ومدحه بمدائح ، فلما مات سنة « ٣٠٠ هـ » وتولى بعده « عبد الرحمن بن محمد — الناصر » أول من لقب بأمير المؤمنين اتصل به ولازمه ومدحه بمدائح كثيرة بالاضافة إلى أرجوزته الشهيرة ، كما جمع له الكثير من شعر ابن عبد ربه ، ويذكر « ابن خلكان »(١٣) أنه اتصل بالمنذر بن محمد « ٢٧٥ هـ » أحد ملوك الأندلس من بنى أمية ، ومدحه بقصائد منها قصيدة طويلة يقول فيها :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

(١٣) وفيات الأعيان ج ١ ص٣٣ .

وقد كانت لهذه الصلات أثر بالغ فى توجهاته الشعرية ، كما كان لمصادر ثقافته أثر واضح فى أدبه وفى عقده على ما سنعرض لذلك فى الحديث عن أدبه وعن كتابه « العقد الفريد » .

أدبه :

وقد سما نجم « ابن عبد ربه » فى سماء الأدب « شعره ونثره » أعانه على الاجادة فيه : سعة إطلاعه ، ووفرة محفوظه ، وتنوع رواقد ثقافته وكثرتها وتشعب صلاته وخبرته بالمجتمع والناس ، والوقوف على آخر ما أنتجته القرائح فى المشرق والمغرب . كما أعانه — أيضاً — ذهن خصب ، وقريحة صافية ، وحافظة قوية ، واستعداد طيب ، ساعده كل ذلك على استيعاب لكثير من المحفوظ من المنظوم والمنثور حتى برز أقرانه .

ونثر ابن عبد ربه — على قلته — يتميز بالايجاز ، وسلامته من الفضول ، وبراء من التعقيد ، وسهولة ألفاظه وعذوبتها ، واتزان عبارته وحسن سبكها ، والبعد عن الغريب . ومن رغب فى دراسة نثره ، والوقوف على أغراضه ومزاياه واستنباط خصائصه فليرجع إلى مقدمته للعقد الفريد ، وفرش لكل كتاب منه يرى النصاعة والاشراق باديان فى نثره . يقول فى مستهل مقدمته للعقد الفريد(١٤) :

« الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، المنفرد بقدرته ، المتعالى فى سلطانه ، الذى لا تحويه الجهات ، ولا تنعته الصفات ، ولا تدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادىء

---

(١٤) سنعرض المقدمة بأكملها عند تحليلنا لنماذج من العقد ، وللتعرف على منهجه فى كتابه .

بالاحسان ، العائد بالامتنان ، الدال على بقائه بفناء خلقه ، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه ، المغتفر إساءة المذنب بعفوه ، وجهل المسيء بحلمه ، الذى جعل معرفته اضطراراً وعبادته اختياراً ، وخلق الخلق من (بين) ناطق معترف بوحدانيته ، وصامت متخشع لربوبيته ، لا يخرج شيء عن قدرته ، ولا يغرب عن رؤيته ، الذى قرن بالفضل رحمته ، وبالعدل عذابه ، فالناس مدينون بين فضله وعدله ، آذنون بالزوال ، آخذون فى الانتقال من دار بلاء إلى دار جزاء » •

ويقول من مقدمة : فرش كتاب اللؤلؤة فى السلطان : « السلطان زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذى عليه مدار الدنيا ، وهو حمى الله فى بلاده ، وظله الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، ويأمن خائفهم »(١٥) •

* * *

وأخيراً فهذه قطعة نثرية من النثر المختار المشحون بالعواطف قالها ابن عبد ربه تمهيدا لقصيدته التى قالها بمناسبة غزو « عبد الرحمن الناصر » الغزوة التى عرفت بغزوة (المنتلون) • قال :

« فتولى الملك ، والأرض جمرة نار تحتدم ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فأخمد نيرانها ، وسكن زلازلها ، وافتتحها عوداً كما أفتتحها بدءاً سمية (عبد الرحمن بن معاوية) ــ رحمه الله ــ وقد قلت وقيل فى غزواته كلها أشعار ، قد جالت فى الأمصار ، وشردت فى البلدان ، حتى أتهمت وأنجدت

---

(١٥) ابن عبد ربه جـ ١ ص ٧ .

وأعرقت ، ولـولا أن النـاس مكتفون بمـا فى أيديهم منهـا لأعـدنا ذكـرها أو بعضها ، ولكنـا سنذكر ما سـبق إلينـا من مناقبه التى لم يتقـدم اليهـا متقـدم ، ولا أخت لهـا ولا نظـير ، فمن ذلك أول غـزاة غزاهـا ، وهى الغـزاة المعروفة بغـزاة « المنتلون »(١٦) ، افتتـح بهـا سبعين حصـناً ، كـل حصـن قـد نكلت عنه الطوائف ، وأعيـا على الخـلائف »(١٧) .

وهى ـ كمـا تـرى ـ تعطى صـورة دقيقة لمـا يتميز بـه نثـر ابن عبد ربـه ، وتبـرز خصائصه الفنيـة التى ألمحنـا إليهـا .

* * *

أمـا شـعره فأكثـر من نثـره ، حتى لقـد عـرف شاعراً . فـال « ياقـوت » نقـلا عن « الحميدى » : « وشعره كثير مجمـوع ، رأيت منـه نيفـاً وعشرين جـزءاً من جمـلة ما جمـع لعبد الرحمن ابن عبد الله الملقب « بالنـاصر » الأمـوى سلطان المغرب ، وبعضها بخطـه »(١٨) .

وقـد قـال الشـعر فى فنون كثـيرة ، أجـاد منهـا فى الغزل والرثـاء أكثـر ممـا أجـاد فى المـدح والهجاء ، وأتى فى بعـض الفنـون بمعـان جـديدة ، وتشبيهات جميـلة ، ولـه فـوق ذلك ميـل الى الشـعر القصصى ، وابداع وإجـادة فيـه (على الرغـم من كـونه كـان قليـلا فى العربية آنذاك) . ونعتبـره بذلك رائـداً

---

(١٦) فى هامش العقد جـ٤ هـكذا فى بعض الأصول ، والبيان المغرب جـ ٢ ص١٦٧ ـ وفى سائر الأصول (الميتلون) .

(١٧) ابن عبد ربـه ـ العقد الفـريد جـ ٤ ص٤٩٩ .

(١٨) معجـم الأدباء جـ ٤ ص٢١٥ ، ط. الحلبى .

وممهداً لهذا الفن فى الشعر العربى(١٩) ، ومن ذلك مطولته التى بلغ عدد أبياتها أربعمائة وأربعين بيتاً ، فصل فيها تاريخ حكم (عبد الرحمن الناصر) حسب السنين ، ومشيداً فيها بغزواته وفتوحاته التى شغلت الدنيا وقتها ، إذ لم يسبق بطول القصيدة واقتصارها على موضوع واحد ، حقيقة قد سبقه آخرون من شعراء المشرق بطول القصيدة ، لكنهم لم يقصروها على موضوع واحد ، فقد أضافوا مع التاريخ الفخر بالأحساب ، لكن الذى شاركه فى ذلك (ابن المعتز) الشاعر والخليفة العباسى ، والناقد المطبوع (٢٤٩ ــ ٢٩٦ هـ) فهما من ميلاد واحد تقريباً ، وقد أنشأ ابن المعتز أرجوزته فى الخليفة المعتضد بينما أنشأ ابن عبد ربه أرجوزته فى الخليفة « عبد الرحمن الناصر » بعد سنة ٣٠٠ هـ كان « ابن المعتز » قد لحق بالرفيق الأعلى ، مما يجعلنا نجزم بتأثر ابن عبد ربه بأرجوزة ابن المعتز ، وأن ابن عبد ربه يعتبر رائداً وممهداً وليس أولا وبادئاً ، أضف الى ذلك دليلا آخر ، وهو أن وجه الشبه بينهما واضح من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى ، فمن حيث اللفظ نجد هذه المقابلة بين بعض الأبيات ، فابن المعتز يقول :

الحمد لله على آلائه
أحمده ، والحمد من نعمائه

يقابل هذا البيت عند ابن عبد ربه :

---

(١٩) جورجى زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص١٧٣ ، ط. دار الهلال بمصر .

(٢٠) راجع ديوان ابن المعتز ج ١ ص١٢٦ ، ط. المحروسة ، العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص٥٠ لترى صدق ما نقول .

فالحمـــد للـــه عـــلى نعمـــائه
حمـــداً جـــزيلا وعـــلى آلائـــــه

أمـا من حيث المعنى فنـرى اتفـاقاً ، فكـل يذكـر الفـوضى التى سبقت حـكم كـل من الخليفتين المعتضد العباسى ، والنـاصر الأندلسى ، وأثـر توليـة كـل منهمـا فى استقرار الدولة وأمنهـا ، والتنكيـل بأعدائهـا .

وعمـوماً فقـد أشـاد بهـا النقـاد ، وأثنـوا على جمالهـا وعـذوبة ألفاظهـا ، وغـزارة معانيها .. أضـف الى ذلك المنهـج التجديدى الذى ظهـر فى تنـوع القافية ليعطى فرصـة للشـاعر لطـول النفس ، واستيعاب المعنى المـراد ، وقـد استهلها بقـوله :

سـبحان مـن لـم تحـوه أقطـار
ولـم تكـن (تدركـه الأبصـار)
(ومـن عنـت لوجهـه الوجـوه)
(فمـا لـه نـد ولا شـبيه)

سـبحانه مـن خـالق قـدير
وعـالم بخلقـه بصـير

ثم يتحـدث عن الظـروف التى تولى فيهـا عبد الرحمن الناصر حـكم الأندلس :

فالحمـــد للـــه عـــلى نعمـــائه
حمـــداً جـــزيلا وعـــلى آلائـــــه

---

(٢١) راجع ترجمة ابن عبد ربـه فى وفيات الأعيان ، وكذا آراء النقاد فى منزلته الأدبية للآتى بعـده .

وبعـــد حمـــد اللـــه والتمجيـــد
وبعـد شـكر المبـدىء المعيـــد
أقـول فى أيـام خـــير النـــاس
ومـن تحـــلى بالنـدى والبـاس
ومـن أبـــاد الكفـر والنفاقـــا
وشـــرد الفتنـــة والشـــقاقا
ونحـــن فى حنـــادس كالليـــل
وفتنـة مثـل (غثـــاء السـيل)
حـتى تـــولى عـــابد الرحمـــن
ذاك الأغـــر مـن بـنى مـروان
مؤيـــد حـــكم فى عـــداته
سـيفاً يسـيل المـوت من ظبـاته
وصـــبح المـــلك مـع الهـــلال
فأصبحا نديـن فى الجمـــال(٢٢)

ثم تحـدث عن مغازيه ، وما فتـح الله عليه فى كـل غـزاة ، كمـا تنـاول أحـداث حكمـه إجمـالا وتفصيلا من سنة ٣٠١ هـ حتى سـنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، ثم ختـم الأرجـوزة بحـديث طـويل عن موقعـة « ملونده » من حصـون « سرقسطة » بالأندلس سـنة ٣٢٢ هـ ، والتى بـدأ حديثه عنهـا بقـوله :

ثـم غـــزا الامـــام ذو المجـدين
فى مبتـــدأ عشـــرين واثنتيـن

---

(٢٢) فى بعض النسخ « بدرين » ويشير بهـذا البيت الى ان توليه عبد الرحمن الناصر كانت صبيحة هـلال ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ .

فى فيـــلق مجمهـــــر لهـــــام
مدكـــدك الـــرءوس والآكـــام
حـــاف الـــربى لزحفـــه تجيـــش
تجيـــش فى حافـــاته الجيـــوش
كأنهـــم جـــن عـــلى ســـعالى
وكلهـــم أمـــضى مـــن الرئبـــال
فاقتحمـــوا « ملونـــدة » و « رومـــة »
ومـــن حواليهـــا حصـــون حيمـــه
حـــتى أتـــاه المـــارق « التجيـــبى »
مســـتجدياً كالتـــائب المنيـــب
فخصـــه الامـــام بالترحيـــب
والصـــفح والغفـــران للذنـــوب

ثم تحـــدث عن تأمينه لأهـــل « بنبلونى » ، وما كان من وقـــائع حتى حقق النصـــر المـــؤزر :

ثـــم مـــضى بالعـــز والتمـــكين
وناصـــراً لأهـــل هـــذا الديـــن
فى جمـــلة الرايـــات والعســـاكر
وفى رجـــال الصـــبر والبصـــائر
إلى عـــدى اللـــه مـــن الجـــلالق
وعـــابدى المخـــلوق دون الخـــالق
فدمـــروا الســـهولا والبقاعـــا
وهتـــكوا الربـــوع والرباعـــا

إلى أن يختتـــم الأرجـــوزة بقـــوله :

ثم ثنى الامام من عنانه
وقد شفى الشجى من أشجانه
وأمن القفار من أنجاسها
وطهر البلاد من أرجاسها(٢٣)

ومن يتصفح هذه الأرجوزة ويمعن النظر فيها يجدها قد توفرت فيها (الوحدة الفنية) ففيها وحدة الموضوع . ووحدة الجو النفسى ، مع ما نلحظ فيها من ترابط فكرى وشعورى ، كما أن الموسيقى فى القصيدة موائمة للجو ، ومناسبة للمعانى التى سيقت فيها . كما تظهر فى القصيدة قدرة ابن عبد ربه ، وتعطى دليل شاعريته ، وتبرز أثر الثقافة الدينية جلية واضحة فيها ، من اقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف من مثل : « ولم تكن تدركه الأبصار » من قوله تعالى : « **لا تدركه الأبصار** » ، (ومن عنت لوجهه الوجوه) من قوله تعالى : « **وعنت الوجوه للحى القيوم** » ومن الحديث : « وفتنة مثل غثاء السيل » الى آخر ما جاء فى القصيدة كما نجد أثر الثقافة التاريخية ، والعلم بالمدن والمواقع ، والقبائل والقواد ، فهى بحق سجل تاريخى حافل لبلاد الأندلس فترة حكم عبد الرحمن الناصر .

* * *

وليست هذه الأرجوزة وحدها هى التى تمثل شعر ابن عبد ربه فى علاقته بعبد الرحمن الناصر ، بل نراه قد استقبل حكمه بأبيات منها :

---

(٢٣) الأرجوزة بأكملها ص٥٠٠ من الجزء الرابع ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بـــدا الهـــلال جـــديداً والملـك غـــض جـــديد
يا نعمـــة اللـــه زيـــدى ما كـــان فيـــه مزيـــد(٢٤)

وحين قـام الناصر بالغـزوة المعروفة (بالمنتلون) أو (الميتلون) التى أشرنا إليهـا فى نثـره ، وهى أول غـزاه للنـاصر ، وافتتح فيها سبعين حصـناً ، قـال ابن عبد ربـه قصـيدة عظيمة منهـا :

قـد أوضـح اللـه للاسلام منهاجـاً
والناس قد (دخلوا فى الدين أفواجا)

وقـــد تزينـت الدنيـــا لســاكنها
وكأنمـا ألبســت وشـياً وديباجـا

يابن الخلائف إن المـزن لـو علمـت
نداك ، ما كان منهـا المـاء شجاجا

والحرب لـو علمت بأسـاً تصول بـه
ما هيجت من حمياك الذى اهتاجـا

مـات النفـاق وأعطى الكفـر ذمتـه
وذلـت الخيـل الجامـاً وإسراجـا

وأصـبح النصـــر معقـوداً بألويـة
تطـوى المراحل تهجـيراً وإدلاجـا

أدخلت فى قبـة الاســلام مارقـــة
أخرجتهم من ديـار الشرك إخراجـا

بجحفل تشـرق الأرض الفضـاء بـه
كالبحر يقـذف بالأمـواج أمواجـا

---

(٢٤) العقـد الفـريد جـ ٤ ص٤٩٨ .

يقـوده البـدر يسـرى فى كواكبـه
عرمـرما كسـواد الليـل رجراجـا

إلى أن يقـول فى ختامهـا :

يا بـدر ظلمتها ، يا شمس صـبحتها
يا ليت حومتهـا ، إن هائج هاجـا
إن الخـلافة لـن ترضى ولا رضـيت
حتى عقدت لها فى رأسك التاجا(٢٥)

إن دعـاة الوحـدة العضوية المحدثين لو حـاولوا أن ينشـئوا شـعراً تتوافر فيـه رسوم مدرستهم لمـا أستطاعوا أن يحققوا أكثـر ممـا حققـه ابن عبد ربـه فى هـذه القصيدة ، وفى الأرجـوزة ، فضلا عمـا نـراه من أثـر للقـرآن ، وروعـة فى الأسلوب ، وترابط فى الأفكار وتسلسل فى المعـانى بحيث يمهـد كـل للاحقه ، ويرتبط بسابقه فى انسـجام تـام .

* * *

ويبـدو أن صـفة الندمان بمـا تلتزمه من ميـل للغنـاء ، وبيئة قرطبـة خاصـة ، والأندلس بصـفة عـامة ، قـد انعكس كل ذلك على شـعره ، فاتجـه الى الصـبوة ، وقـال كثـيراً فى الغزل والنسيب أيام صـباه ، ثم عـاد فنقض كـل ذلك فى آخـر حياته بقصـائد ومقطعات فى الزهـد نقض فيهـا ما قـاله أيام صبوته ..

---

(٢٥) العقـد الفـريد جـ ٤ ص٤٩٨ .

فمن شعر الصبوة قوله :

ودعتني بزورة واعتناق
ثم نادت ، متى يكون التلاقى ؟

وبدت لى فأشرق الصبح منها
بين تلك الجيوب والأطواق(٢٦)

يا سقيم الجفون من غير سقم
بين عينيك مصرع العشاق

إن يوم الفراق أقطع يوم
ليتنى مت قبل يوم الفراق

وطلب (المتنبى) من الخطيب « أبى الوليد بن عسال » حين لقيه بمسجد « عمرو بن العاص » أن ينشده المليح الأندلس (يعنى ابن عبد ربه) فأنشده هذه الأبيات :

يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقاً
ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
ورداً(٢٧) ، يعود من الجناء عقيقاً

وإذا نظرت الى محاسن وجهه
أبصرت وجهك فى سناه غريقاً

---

(٢٦) الجيوب : جمع جيب ، وهو الموضع المقور على الصدر ، والأبيات أوردها الأغانى ج ٤ ص٢٢١ .

(٢٧) هامش ص٢٢٢ من معجم الأدباء : « فى اليتيمة : درا يصير » وهو مناسب للعقيق .

يا مـن تقطـع خصـره من ردفـــه
ما بـال قلبـك لا يكـون رفيقـــاً

فلمـا أكمـل إنشادها ، استعادها المتنبى ، ثم صفق بيديه ، وقـال : « يابن عبد ربـه ، لقـد يأتيك العـراق حبـواً »(٢٨) .

ومن أمثـلة شعره فى الزهـد مقطعاته التى سميت (بالمحصات) والتى نقض فيهـا قصائده الغزلية ونظمهـا على نفس أعاريض الأولى وقوافيها تلك القصـيدة التى قالهـا أيـام صـبوته إلى من تألفـه حين أزمـع على الرحيـل فى غـداة عينهـا ، فأتت السماء بمطـر جـود منعتـه من الرحيـل ، قـال فيهـا :

هـلا ابتكرت لبيـن أنـت مبتـكر
هيهـا تبأبى عليـك الله والقـدر

مازلت أبكى حـذار البيـن ملتهفـاً
حتى رثـا لى فيـك الريح والمطـر

يا بـرده من حيـا مـزن على كبـد
نيرانهـا بغليـل الشـوق تستعر

آليـت ألا أرى شمسـاً ولا قمـراً
حتى أراك فـأنت الشمس والقمـر

فلمـا رجـع عن صبوته واتجـه الى الزهـد ، محصها بقوله :

يا قـادراً ليس يعفـو حيـن يقتـدر
ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر ؟

---

(٢٨) ترجمة ابن عبد ربـه لياقوت جـ ٤ ص٢٢٣ معجـم الادباء .

عـاين بقلبـك ، إن العيـن غافـلة
عن الحقيقة وأعـلم أنهـا سـقر

سـوداء تزفـر من غيظ إذا سـعرت
للظـالمين فمـا تبـقى ولا تـذر

لو لم يكن لك غـير المـوت موعظـة
لـكان فيـه عن اللذات مزدجـر

أنت المقـول لـه ما قـلت مبتـدئاً
هـلا ابتكرت لبيـن أنت مبتـكر ؟

وعمـوماً فشعر ابن عبد ربـه يتميـز بسهولة اللفظ ، ورقتـه وعذوبته ، فيـه رونق وحـلاوة ، وبعـد عن البديـع ولم يحمـله أكثـر ما يطيق من المعـانى ، يستوى فى ذلك غـزله ، وزهـده ، وقصصه ، وجميـع فنونه ، مع ظهـور أثـر القـرآن فيـه .

منزلتـه الأدبيـة :

ولمـكانة ابن عبد ربـه فى عـالم الأدب والأدبـاء ، وذيـوع شهرته بكتـابه « العقـد الفـريد » أجمـع الأدبـاء والفقهـاء على عـلو منزله ، وارتفـاع مكـانه ، فيقول عنـه (الفتـح بن خاقان) : « إنـه حجـة الأدب ، وان لـه شـعراً انتهى وانتهـاه ، وتجـاوز سـماك الاحسان وسـهاه »(٢٩) ، وقـال (ابن سـعيد) : « إمـام أهـل المـائة الرابعة وفرسان شعرائها فى المغـرب كلـه »(٣٠) ، ونقـل « ياقـوت الرومى » عن « الحميدى » قـوله : « لأبى عمـر بالعـلم جـلالة وبالأدب رياسـة »(٣١) ، وهـذه شهادة شـاعر

(٢٩، ٣٠) العقـد الفـريد جـ ١ مقدمة المحقق .
(٣١) معجـم الأدباء جـ ٤ ص٢١٥ ترجمة ابن عبد ربـه .

انعقد له لواء الشعر فى عصره حتى أوصلته شاعريته إلى الاعتداد بنفسه فعد نفسه صنواً للملوك ، ذلك هو (المتنبى) الذى أسلفنا أنه استنشد (الخطيب بن عسال) شعراً لمليح الأندلس « ابن عبد ربه » فقال قولته المشهورة إعجاباً بما سمع : « يابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبواً » . يقول الزيات : « وكفى بشهادة المتنبى دليلا على فضل الرجل ، وعلو كعبه فى عالم الأدب »(٣٢) .

وأخيراً نختم حديثنا عن مكانة « ابن عبد ربه » ومنزلته الأدبية بشهادة أديب مجيد ، وباحث اكتسب شهرة فى العصر الحديث هو الأستاذ « جورجى زيدان » يقول : « من العلماء المكثرين من المحفوظات ، والاطلاع على أخبار الناس ، وكان شاعراً مطبوعاً »(٣٣) .

وفوق ذلك إجماع على قيمة كتابه « العقد الفريد » الذى ستتوفر دراستنا هذه على تناوله بحثاً عن قيمته وأثره ، واستجلاء مكنونه ، واستظهار فكر صاحبه .

* * *

وفـــاته :

وبعد حياة حافلة بتحصيل المعرفة ، وارتفاع نجمه فى سماء الأدب ، وعلو منزلته لدى الامراء الأندلسيين من بنى أمية أصابه « الفالج » لسنوات حتى وافاه الأجل المحتوم فى يوم الأحد الثامن عشر من شهر جمادى الأولى سنة ثمان

---

(٣٢) أحمد حسن الزيات ـ تاريخ الأدب العربى ص٣٢٢ .
(٣٣) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص١٧٣ .

وعشرين وثلثمائة على وجه التحقيق ، ودفن فى يوم الأثنين فى مقبرة بنى العباس بقرطبة « وفيات الأعيان ج ١ ترجمة ابن عبد ربه ــ لابن خلكان » ــ عن إحدى وثمانين سنة ، وثمانية أشهر ، وثمانية أيام ، يشهد لذلك قوله فى آخر حياته :

بليت وأبلتنى الليالى بكرها
وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبكى لسبعين حجة
وعشر أتت من بعدها سنتان

ويصبح بذلك ما ذكرنا من تاريخ وفاته « الذى اضطربت فيه الأقوال مابين سنة : (٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٤٨ هـ) أنه هو الجدير بالاحترام والقبول •

ومن أراد المزيد من أخبار ابن عبد ربه وأدبه فليقرأ :

١ ــ معجم الأدباء ، لياقوت الحموى ج ٤ •
٢ ــ وفيات الأعيان ــ لابن خلكان ج ١ •
٣ ــ الوافى بالوفيات ــ لابن شاكر الكتبى ج ٢ قسم ٣ •
٤ ــ بغية الوعاه ، للسيوطى ص١٦١ •
٥ ــ يتيمة الدهر ، للثعالبى ج ١ ص٣٦٠ •
٦ ــ الاعلام ــ للزركلى ج ١ •
٧ ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ جورجى زيدان ج ٢ •
٨ ــ ابن عبد ربه وعقده ــ جبرائيل سليمان جبور •
٩ ــ الفرام البستانى ــ سلسلة الروائع •
١٠ــ مقدمة العقد ــ لأحمد أمين وآخرين •

* * *

العقـــــد الفـــــريد

دراســة حــول الكتــاب والمضــمون

أولا ــ دراســة حــول الكتاب :

١ ــ سبب التسمية وتحقيقهــا :

يختلف الباحثون فى وصــف هــذا الكتــاب بــ « الفــريد » نعتــاً لاسمه « العقــد » ، وهــل التسمية بنعتهــا ممــا وضــعه المؤلف ، أم النعت بــ « الفــريد » زيــادة أضافها الناشرون الذين عنــوا بكتــاب ابن عبد ربــه « العقــد الفــريد » ؟ .

وتحت يــدى تحقيق طــريف لنعت العقــد « بالفــريد » أمــلاه الأســتاذ الدكتور طاهــر عــوض على طــلابه فى كليــة الدراسات الاسلامية ، يذهب فيــه إلى أن النعت « بالفــريد » أمــر متأخــر عن تأليف الكتــاب وتسميته ، واســتند ــ سيادته ــ فيمــا ذهب اليــه الى نقول من المصــادر الأولية التى بين يديه لا يــرى فيهــا جميعاً « العقــد » منعــوتا بــ « الفــريد » ، وذكــر منهــا : الضــبى ، والقيروانى ، والفتــح بن خاقان ، وياقــوت الرومى ، وابن صــاعد الأندلسى ، وابن حجــة الحمــوى ، والقلقشندى ، والمقــرى ، وابن أبى اصيبعة فى « عيون الأبنــاء فى طبقات الأطبــاء » ، وأخيراً « حاجى خليفــة » فى « كشــف الظنــون » وكلهــم يذكــر عند الحديث عنــه أو عن كتــابه أنــه « العقــد » أو صــاحب « العقــد » مجــرداً من الوصــف بــ « الفــريد » .

كما يذكر ـ سيادته ـ أنه لم يعثر على مصدر يرى فيه كلمة « العقد » منعوتاً « بالفريد » إلا على مصدر واحد هو (المستطرف فى كل فن مستظرف) للابشيهى ، ولذلك فهو لا يعول على هذا المصدر ، كما لا يستطيع أن يعين بالضبط الوقت الذى أضيفت فيه كلمة « الفريد » نعتاً للعقد ، ضرورة أنها لم تكن موجودة فى التسمية الأصلية اعتماداً على ما ذكر من المراجع .

ويبدو أن الأستاذ الدكتور ـ فى مذكراته ـ اعتمد على ما ذهب إليه « حاجى خليفة » الذى يظهر من النص الذى نقله « حاجى خليفة » عن النسخة الخطية التى اطلع عليها أن فيها اضطراباً واضحا ، لأنه منقول من موضعين مختلفين من المقدمة كما نراه ثابتاً فى النسخة المطبوعة التى تحت يدى ، وهى من إصدار « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وبتحقيق ثلاث من الأساتذة الأدباء . والذين نعتبرهم مراجع فى التحقيق ، وهم : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الابيارى .

ولنقرأ نص « حاجى خليفة » ـ كما نقله الدكتور ـ جاء فيه : « ألفت هذا الكتاب وتخيرت نوادره من متخير جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ، وسميته بالعقد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع الغالب فى الجمع والتصحيح ، (حاجى خليفة ٢ ـ ١٢٤ نقلا عن ابن عبد ربه ١ ـ ٢ قبل المقدمة) أهـ.

ووجه الاضطراب فى نقل « حاجى خليفة » أن عبارة « وسميته بالعقد ... الخ » تأتى بعد العبارات الثلاث الأولى بتسع وأربعين سطراً ، وأن عبارة (مع الغالب فى الجمع والتصحيح)

من نقل : « حاجى خليفة » التى جاءت بعد كلمة « جواهر الكلام » جاءت فى طبعتنا هكذا : (وسميته « بالعقد الفريد » لما فيه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة السلك ، وحسن النظام) . ولعلك توافقنى — والعبارة فى صلب المقدمة لا فى صفحات قبلها — أن العبارة هكذا فى موضعها تكون تعليلا جميلا لتسمية كتابه بالعقد ، ووصفه « بالفريد » فهو فريد لجمعه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة السلك ، وحسن النظام ، كما قال صاحبه فى صلب مقدمته .

وبذا لا نجد مجالا لدهشة الأستاذ الدكتور من ظهور كلمة « الفريد » وصفاً للعقد فى كل الطبعات التى بين أيدينا ، وعدم إشارتها ، أو اشارة لجنة الفهارس بدار الكتب المصرية إلى زيادتها ، لأنه لا داعى مطلقاً — بعد أن يثبت المؤلف نفسه نعت كتابه « بالفريد » فى صلب مؤلفه — كما أشرت — أن نقول : إنه لا أصل لها ، أو أنها من تزيد الناشرين ، ثم نهمل أمثال : الابشيهى فى المستطرف ، ونهمل أيضاً « الزركلى — فى الأعلام ج ١ ص٦٩ » إذ يقول : « هو الأديب الفاضل ، والامام الكامل ، صاحب العقد الفريد » وأيضاً « جورجى زيدان » فى كتابه (آداب اللغة العربية ج ١ ص١٣٣) قال : وإنما اشتهر بكتابه « العقد الفريد » .

ولعل الذين ذكرهم الأستاذ الدكتور محتذياً حذو « حاجى خليفة » الذى اضطرب نقله ، ولم تستقم عبارته — كما رأينا — قد تخففوا فى النقل ، ووسموه بصاحب « العقد » ، وهذا أمر محتمل جداً ، لأننا تعودنا أن نطلق على الشخص أو الشىء إسماً واحداً من أسمائه أو صفاته لمجرد الدلالة عليه فى معرض التعريف به ، فظنها « بروكلمان » كما ظنها « حاجى خليفة » أنها من زيادات الناشرين .

وأخيراً فسواء أذكرت كلمة « الفريد » فى الأصل ، أم لم تذكر ، فذلك لا ينقص من قيمة الكتاب ، وأنه فريد فيما وعاه ، وفريد بالصفة التى ظهرت عليها صورة الكتاب .

* * *

٢ ــ منهج الكتاب :

كشف ابن عبد ربه ــ فى المقدمة ــ عن المنهج الذى اتبعه فى تأليفه ، فذكر : أنه تخيره من متخير جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ... وأنه ليس له إلا تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش فى صدر كل كتاب ... وأنه تطلب نظائر الكلام ، وأشكال المعانى فقرن كل جنس منها إلى جنسه ، وجعل كل جنس باباً على حدة .. وأنه عمد فى الاختيار الى الأشرف والألطف ... وأنه حذف الأسانيد طلباً للاستخفاف والايجاز وهربا من التثقيل والتطويل .. وأنه سد فى كتابه الخلل الموجود فى تآليف السابقين عليه .. وأنه حلى كل كتاب بشواهد من الشعر تجانس الأخبار ، وقرن بها غرائب من شعره(٣٤) .

ولنا وقفة مفصلة مع منهج ابن عبد ربه فى العقد عند تحليلنا المقدمة كنموذج من نماذج الكتاب للوقوف على اللمحات الفنية والنقدية عند ابن عبد ربه .

* * *

---

(٣٤) مقدمة العقد لابن عبد ربه .

٣ ــ تبويبــه وتقسـيمه :

تبويب الكتــاب وتقسيمه ، وهــو الجــزء الأخــير من منهــج ابن عبد ربــه فى تأليف العقــد ، يقــول : « وجزأته على خمســة وعشرين كتــاباً ، كل كتــاب منهــا جــزآن ، فتلك خمسون جــزءاً فى خمسة وعشرين كتــاباً ، وقــد انفــرد كل كتــاب منهــا باســم جوهره من جواهر العقــد »(٣٥) .

فهــو قــد تصــور كتــابه عقــداً منظــوماً من خمسة وعشرين جوهــرة كريمة ، اثنتــا عشرة منهــا فى جــانب ، واثنتــا عشرة منها فى جــانب آخــر ، وواحــدة هى واسطة العقــد ، ولكنه لم يســم إلا الاثنتى عشرة الأولى : اللؤلؤة ، والفريدة ، والزبرجدة ، والجمانة ، والمرجانة ، والياقوتة ، والجوهــرة ، والزمــردة ، والدرة ، واليتيمة ، والعسجدة ، والمجنبة ، أمــا التى هى واسطة العقد فتسمى (الواسطة) فى الخطــب .

أمــا الاثنتا عشرة التى فى الجانب الآخــر ، فهى الأسماء مكررة ، فمثلا : المجنبة الثانية ، ثم العسجدة الثانية ، ثم اليتيمة الثانية .. الخ.

ومن المعلوم أنــه جعل لكل باب موضوعاً : فاللؤلؤة فى السلطان ، والفريدة فى الحــروب ومــدار أمرهــا ، والزبرجدة فى الأجــواء والأصفاد ، والجمــانة فى الوفــود .

وقــد أسلفنا أن ابن عبد ربــه قــد استفاد كثــيراً بكتــاب « عيون الأخبــار » لابن قتيبــة ، واستغله أعظــم استغلال ، سواء فى ترتيبه وتبويبه ، أو فى مشتملات أبوابه ، وأنــه اقتبس من الجاحظ فى البيــان ، ومن المبــرد فى الكامل ، ومن ابن المقفــع ، ولكن الحق

---

(٣٥) مقدمة المحقق ص ط ، ى .

بقال أن شخصية ابن عبد ربه فى العقد أوضح من شخصيات هؤلاء المؤلفين فى كتبهم « فان مؤلف « العقد » مختار ومنشىء معاً فهو يقدم الباب بمقدمة من إنشائه لطيفة الأسلوب ، جيدة المعانى ، وهو يتبع الباب بما ينشئه من شعره ، وتشيع فيه آراؤه النقدية »(٣٦) .

وبذا نستطيع الحكم بأن منهج ابن عبد ربه من الاحكام والدقة والثراء ما يعكس الشخصية العلمية والأدبية لصاحبه وقدراته بحيث ظهرت حتى على ما استفاده من الآخرين .

* * *

٤ ـ الهدف والمضمون :

من يتصفح كتاب « العقد الفريد » يجده مجموعة أدبية ضمنها ابن عبد ربه ما رآه حقيقياً بالتدوين من فروع الأدب ، كالخطب ، والشعر ، والأمثال ، والرسائل ، وأقوال العلماء والحكماء ، كما أضاف بحوثاً فى علوم عصره المتصلة بالأدب ، كعلم العروض ، والألحان ، والتاريخ ، والبلاغة ، وأخبار العرب الجاهليين وأنسابهم وأيامهم .

كما ضمن العقد كثيراً من شعره ، وآرائه النقدية التى ذكرها تعقيباً على ما جمع من أقوال الأدباء : يستحسن أو يستهجن ، أو يضع قواعد للكتاب ويدلهم على أدوات الكتابة ، وما ينبغى أن يكون مثلا يحتذى فى المقامات المختلفة الملائمة لمن يكتب لهم ، أو المناسبات المختلفة وما ينبغى أن يكتب فيها .

---

(٣٦) مقدمة المحقق ص ط ، ى .

ولعل هذه الوجهة النقدية تبلورت من استعداد موهوب عنده ، عذاه بما تأثر به من اطلاعه على كتب السابقين عليه ، حيث يقول : قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة : « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنا واحداً ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتفنن فى العلوم »(٣٧) ، وكقوله نقلا عن محمد بن منصور كاتب « إبراهيم » « سمعته يقول : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه »(٣٨) .

وكما ضمنه الشعر والموسيقى والخطب ضمنه الأخبار التاريخية عن عصره وقبل عصره ، فهو مرجع تاريخى معتد به « حيث أن بعض الأخبار لا تجدها فى سواه ، وتتضمن حقائق يعز العثور عليها فى غيره ، كأخبار زياد ، والحجاج والطالبين »(٣٩) وكل ماله صلة يراها هو أو متأدبو عصره وثيقة بالأدب .

وبذا يكون ما تضمنه الكتاب قد حقق الغاية التى سعى إليها « ابن عبد ربه » ، وهى أن يكون ذا صبغة أدبية بالدرجة الأولى ، وأن كل ما حواه مخالفاً لذلك فانما هو — من وجهة نظره — يخدم الغاية الأدبية .

وسنناقش قضية تحقيق الكتاب لأهدافه بعد الحديث عن قيمة الكتاب الأدبية والتاريخية عند حديثنا عن ملحوظات النقاد عليه .

---

(٣٧) العقد الفريد ج ٢ ص٢٠٠ .
(٣٨) المصدر السابق ج ٢ ص٢٨٤ .
(٣٩) ابن خلكان — الجزء الثانى .

٥ ــ قيمــة الكتــاب الأدبية :

ممــا لاشــك فيــه أن الصبغة الأدبيــة واضحة عندما يقــلب القــارىء صفحات العقــد ، بــل يجدهــا قــوية ظاهــرة ، تبــدو فى كــل كتــاب من كتبــه ، وفى كــل فصــل من فصــوله .

ولعــل ابن عبد ربــه قــد أراد ذلك وقصــده عندما يقــول فى مقدمته : « وتخيرت جواهــره من متخــير جواهر الأدب ، ومحصول جــوامع البيــان »(٤٠) .

ويتتبــع وجيــز لمــا حــواه « العقــد الفــريد » ترى مصداق ذلك ، وقــلب إن شــئت صــفحاته وتمهــل عند قــراءة محتوياته فســترى :

أن « العقــد الفــريد » جمــع ألوفــاً من أبيــات الشــعر لأكثــر من مائتى شاعر من العصــر الجاهلى ، والأموى ، والعباسى ، وقــدر كبــير من شــعر ابن عبد ربــه ، مضــافاً الى ذلك قصيدته الطويلة التى أنشــأها فى الاشــادة « بعبد الرحمن النــاصر » متتبعاً فيهــا سنوات حكمــه ، وما حققــه من انتصارات .

وبوسعك أن تذكــر شــاعراً من هــذه العصور ، وتقلب صفحات العقــد فستجد لــه ذكــراً ، ومن شــعره شاهدا ، وعنــه خبــرا ، ومن أقواله نــادرة . سترى : النابغة ، امــرؤ القيس ، طــرفة ، الأعشى ، حســان ، لبيــد وما الى غــير ذلك من الشعراء الجاهليين ، والاسلاميين ، والأمويين ، والعباسيين .

وســترى فى العقــد كتــابا خاصــاً جعــله واسطة عقــده ذكر فيــه عيــون الخطب ، وفيــه قصص وحكايات ، ونــوادر جمعهــا

---

(٤٠) ابن عبد ربــه ــ المقدمة ص٢ .

من مصادر شتى ، وجعل أكثرها فى كتابين : أحدهما للمتنبئين ، والمروريين ، والبخلاء ، والطفيليين ، والآخر للفكاهات والملح .

وفيه كتاب الجوهرة فى « الأمثال » به مجموعة كبيرة من الأمثال رتبت وصنفت وبوبت حسب موضوعاتها ، فتراه يذكر أولا أمثال النبى العربى ، ثم أمثال العلماء ، ثم أمثال اكثم ابن صيفى ، وبزر جمهر الفارسى ، ثم أمثال العرب عامة ، وتراها قد كتبت تحت عناوين وضعها لها ، مثل : من ضرب به المثل من الناس ، من البهائم ، من الطيور ، من غيرها . وربما يكون قد استعان فى هذا الباب بكتاب الأمثال لأبى عبيدة — كما قال ابن النديم —(٤١) .

ومما زاد فى القيمة الأدبية للكتاب أنه يتضمن فصلا فى النقد الأدبى نقل بعضها عن الشيبانى وغيره من الأدباء القدماء ، كما أن له آراء فى النقد الأدبى بثها فى ثنايا كتابه كما أسلفنا .

وحسبك أن تقف على أقوال بعض النقاد — إضافة لما سبق — لتدرك القيمة الأدبية للعقد الفريد :

- يقول ابن خلكان : « وصنف كتابه العقد ، وهو من الكتب المتعة ، حوى كل شىء »(٤٢) .
- ويقول د. طه حسين : « وهو من أمهات الكتب ، فلقد حوى خير ما ألف فى موضوعه من الكتب السابقة »(٤٣) .
- ويقول جورجى زيدان : « أما العقد فأنه أجل كتب الأدب

---

(٤١) الفهرست جـ ١ ص٥٤ ، ٥٥ .
(٤٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص٣٣ .
(٤٣) د. طه حسين وآخرون — مختارات من كتب الأدب ص٢٥٤ .

وأحواهـا ، أو هـو كالخزانة حـوت خلاصة علوم العصـر حتى الطـب والموسيقى ، فضـلا عن الأخبـار والأنساب . واللغـة والأمثال والشـعر والعروض وقواعـده ... ثم يقـول : وهـو من أمهـات كتب الأدب التسعة .. حـوى خلاصة الكتب السالفة غـير القـرآن والحديث والتـوراة والأنجيل(٤٤) .

وهـذا الأسـتاذ أحمـد أمين يقـول فى مقـدمة الطبعة الحلبية التى نشرتها لجنـة التأليف واشترك فى تحقيقهـا : « ولـه آراء فى النقد شائعة فى الكتاب فيستحسن ويستهجن ، ويبين مواضع الاستحسان والاستهجان ، ويخـالف النقـاد فى آرائهـم فى أحسـن بيت ، وفى عيـوب الشـعر ، ويبدى رأيـه فيمـا يحسـن من الكـلام وما لا يحسـن وأسباب ذلك »(٤٥) .

٦ ـ القيمـة التاريخية للكتـاب :

وفـوق أن كتـاب « العقـد الفـريد » قصـد صاحبه إلى الغاية الأدبيـة ، وأنـه قـد تحقق لـه ذلك بحيث أصـبح الكتـاب من أمهـات الكتب الأدبيـة ، ومصدراً هـاماً من مصادرها .

أقـول ـ فـوق ذلك ـ فـان كتاب « العقـد الفـريد » يعـد من المصـادر التاريخية التى يرجـع إليهـا الباحثون فى تاريخ العرب السياسى ، والاجتماعى ، والأدبى ، فهـو يذكـر لنـا بعض روايات الأقدمين ممن لم يترك الزمن من آثارهم التاريخية والأدبيـة شـيئا مجموعـاً فى كتب مستقلة . فـاذا أردت شـيئا عن الأصمعى ، وأبى عبيـدة ، والعتبى ، والشيبانى وغيرهم فارجـع الى العقـد تجـد

---

(٤٤) تاريخ آداب اللغـة العربية ج ٢ ص١٧٣ .
(٤٥) ص ى من مقـدمة المحقق .

آثارهم مجموعة فيه ، ولذا فهو مفيد لمن يرغب فى الرجوع إليها أو مقابلتها بما يجده منها فى المصادر الأخرى . (أضف الى ذلك امتيازه عن كثير من الكتب القديمة بالتبويب والتنسيق والاختيار) .

وبتتبع سريع موجز لما حواه العقد فى هذا الجانب نرى صدق هذه القضية :

- فهو يذكر الكثير من أخبار رجال الاسلام الأول ، من خلفاء وأمراء ، وقواد فى عصر الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، وفى الأندلس .
- كما يذكر شيئاً من أيام العرب الأولى ، واختلاف أمرهم فى العصر الأموى .
- وتلحظ فيه كثيرا من الفوائد التاريخية مما يتعلق بالسياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، فاذا قرأت خبر وفود عبد الله بن جعفر مثلا على عبد الملك بن مروان(٤٦) ترى مصداق ذلك ؛ كما تفهم شيئا عن تلك العلاقات بين بنى أمية فى الشام ؛ وبين النفر الأرستقراطى الذى يعيش فى الحجاز ، كما ترى شيئاً من حياة الأمراء ونزعة الجيل الجديد الذى تلا عصر الصحابة الى البذخ والترف .
- وترى فى العقد أسماء من كتبوا للنبى عليه السلام ، ولبعض الخلفاء والأمراء ، كما تراه يدقق فى أنساب القبائل وصفاتهم ومكارمهم كما فعل مع قريش .

ومن أراد التخصص فى بعض الشخصيات الأولى فليرجع الى العقد

---

(٤٦) العقد ـ ج ١ .

الفريد يرى ذلك ظاهراً ملموساً ، وخذ لذلك مثلا ما كتبه عن عثمان رضى الله عنه ، وتتبعه له حتى هيئته وهنداماه ، ومثل ذلك عن الحجاج الثقفى ، ولا يفوتنا أن نذكر عدم إهماله لبلاده فقد ذكر كثيراً من الأخبار التاريخية عن الأندلس ، ولاسيما من اتصل بهم من أمرائها وعلى الأخص الناصر الذى كتب تاريخه فى أرجوزته الشهيرة .

وعموماً فهو — كما أسلفنا — مرجع تاريخى بعامة للحقبة التى حواها ، يشهد لذلك ما قاله (جورجى زيدان) ، مما يوضح القيمة التاريخية للعقد : « .. أن فى بعض أبوابه فصولا لا تجد مثلها فى كتب التاريخ ، فأخبار زياد والحجاج والطالبين فيها حقائق يعز العثور عليها فى كتاب آخر ، وناهيك بأيام العرب .. وما هناك من أخبار الخوارج والأزارقة ... الخ(٤٧) .

وأخيراً فلا ننسى قرب عهد صاحبه بكثير من الأمور التى وقعت وذكرها فى كتابه ، مما يعزز القيمة التاريخية لهذا الكتاب ، ويعد مصدراً قديماً فيها يوثق بالرجوع إليه .

* * *

٧ — هل حقق الكتاب أهدافه ؟!

من حيث ما قررناه سابقاً ، ومن وجهة ما أجمع عليه النقاد من أن العقد غايته الأولى أدبية ، وأن ما يحويه من أخبار أخرى فانما الغرض منه أن يكون فى خدمة الغاية الأدبية فقد حقق العقد هذه الغاية بوفاء ودقة ، يفوق بها غيره ولا يلحقه سواه .

---

(٤٧) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص١٧٣ وما بعدها .

أضف الى ذلك ما أشرنا إليه فى القيمة التاريخية من أن العقد تطرق الى إشارات وأخبار وتحدث عن أشخاص فى المشرق والمغرب لم تتيسر أخبارهم إلا منه ، ويعد مرجعاً فيما عرض له فهو قد حقق غايته بالقدر الذى أراده صاحبه ليكون عاملا مساعداً لتحقيق الهدف الأول .

* * *

٨ ــ مآخذ النقاد على العقد :

لكنى لا أترك الحديث عن الكتاب وأخلص إلى تحليل بعض نماذجه حتى أناقش المآخذ التى وجهها بعض النقاد إلى الكتاب ، ومدى تحقيقه لأهداف مؤلفه أدبية كانت أم تاريخية :

● فمن الناحية **الأدبية** لم نقرأ فيما تيسر لنا من مراجع ــ على كثرتها ــ لوماً موجها الى « العقد الفريد » سوى ما نقلوه من أن « الصاحب بن عباد » قال حين قرأ الكتاب : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم ، وانما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه »(٤٨) ، يريد بذلك أن العقد يخلو من أخبار الأندلسيين . ولعل ما ذكره (المقرى) عن (أبى على التميمى القيروانى) من أنه قال : « انه يلحقه بعض اللوم إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده »(٤٩) ، وأن « القلقاط » الشاعر المعاصر قال عن العقد : « أنه كحبل الثوم »(٥٠) ، راجع الى ما نقل عن « الصاحب بن عباد » .

---

(٤٨) ياقوت عن الحميدى جـ ٤ ص٢١٥ ومقدمة المحقق للعقد .
(٤٩) نفح الطيب ــ جـ ٢ ص٧٦٧ ، ط. مصر .
(٥٠) المصدر السابق جـ ٢ ص٨٣٢ .

ولنا مع هذه القضية وقفة حيث أثبتنا فى تمهيدنا لهذا البحث أنه كان فى الأندلس مدرستان : احداهما تعنى بأدب الأندلس ، والأخرى بأدب المشارقة ، وأن ابن عبد ربه من زعماء هذه الأخيرة ، وأن كلا المدرستين كان يكمل بعضه بعضاً كما تفعل الأمم الحية الى اليوم تدون أدبها وتنقل نتاج غيرها وأدبه إليها(٥١) .

أضف الى ذلك ما أشرنا إليه فى القيمة التاريخية من أن العقد ذكر كثيراً من أخبار الأندلس ، وأن لصاحبه أرجوزة فى مغازى عبد الرحمن الناصر ، وأنه قد عارض كثيراً من شعراء المشارقة فى الموضوعات المختلفةبشعره هو(٥٢) ، لنرى أن العقد لم يغفل أخبار بلاده كما قالوا .

* * *

● أما من الناحية **التاريخية** فنرى أن بعض النقاد قد دون بعض الملحوظات على هذه الناحية ، ومرجعهم فى ذلك ما قرره هو بنفسه ، وأشرنا إليه فى منهجه حيث يقول : « وحذفت الأسانيد طلباً للاستخفاف والايجاز ، وهربا من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة ، وحكم ونوادر لا ينقصها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منه »(٥٣) .. فهو يهدف الى أن كتابه كتاب أدب لا ينبغى أن يشغلك عن المتعة بما ورد فيه من أخبار طول الأسانيد التى لو حذفت ما ضر ذلك جوهر الكتاب ، ويسوق لوجهته أدلة موثقة بوسعك أن تقف عليها فى مقدمته التى ضمنها منهجه .

---

(٥١) راجع ما كتبناه ص٥ من هذا البحث .
(٥٢) العقد الفريد ـ مقدمة المحقق .
(٥٣) مقدمة العقد ـ للمؤلف .

وقد رتبوا على هذه القضية قضايا أخرى ، منها : تساهله فى اسناد الأخبار حتى فى الحديث ، وقارنوا بينه وبين كتاب « الأغانى » الذى يحرص على « العنعنة » ، كما سجلوا عليه إهماله للمصادر التى استقى منها أخباره وهذه يقرها هو ، لأنه لا يذكر ولا يختار إلا ما يلائم كتابه ، ويوافق ذوقه • كما سجلوا أنه لا يمحص الأخبار ، بل ينقل الكثير منها على علاته دون أن يسبرها بمعيار العقل والمنطق « وهذا قدر يشترك فيه ابن عبد ربه مع كثير من مؤرخى العرب المتقدمين » ، كما أنه يشترك مع غيره من مؤرخى العرب القدامى عند نقلهم الأخبار التاريخية من عدم تقديرهم للأسباب الحقيقية فى كثير من الحوادث المختلفة • وأخيراً قلة التدقيق فى كثير من الأمور التى يوردها بحيث يوردها فى بعض الأحيان أخباراً ثم يذكرها فى موضوع آخر بصورة تناقض تماماً ما ذكره أولا ، دون أن يشير الى أنه قد لاحظ هذا التناقض(٥٤) •

وكلها لا تنهض دليلا على ما قرره النقاد سابقا من تحقيق أهداف تاريخية •

وبذا نخلص إلى النتيجة التى قررناها سابقاً من تحقيق الكتاب لغايته الأدبية ، وأن الملحوظات التى لحظت على قيمة الكتاب التاريخية لا تغض من قيمة الكتاب ، وأن تعليلات المؤلف مقبولة ، وأنها مزايا انفرد بها دون غيره ، جعلت الجميع يقرون بوفائه أدبياً وتاريخيا •

* * *

(٥٤) احصاء للدكتور طاهر عوض فى مذكرته لطلاب الدراسات ، ويمكن الوقوف عليها فى ثنايا العقد .

ثانيـا ــ نصـوص من الكتـاب :

فى المقـدمة التى ذكـرها ابن عبد ربـه غنـاء عن نصـوص كثـيرة ، لمـا فيهـا من تفصيل لمنهجـه وبيـان لأسلوبه ، وأثـر ثقافته فى أدبـه ، ولـذا سنكتفى بهـا حتى لا يطـول بنـا البحث .

* * *

قال **أبو عمـر أحمد بن عبد ربـه** الأندلسى ــ رحمه الله(٥٥) :

١ ــ « وبعـد : فان أهـل كل طبقـة ، وجهابذة كـل أمـة ، قـد تكلموا فى الأدب ، وتفلسفوا فى العلوم على كـل لسـان ، ومع كـل زمان ، وإن كـل متكلم منهم قـد استفرغ غايته وبذل مجهوده فى اختصـار بديـع معـانى المتقدمين ، واختيار جواهـر ألفـاظ السابقين ، وأكثروا فى ذلك حتى احتـاج المختصر منهـا إلى اختصار ، والمتخـير منهـا الى اختيـار .

٢ ــ ثم إنى رأيت آخـر كـل طبقـة ، وواضعى كـل حكمة ، ومؤلفى كـل أدب ، أعـذب ألفاظـاً ، وأسهل بنيـة ، وأوضح طريقة من الأول ، لانه ناكص متعقب ، والأول بادىء متقـدم .

٣ ــ فلينظر النـاظر إلى الأوضاع المحكمة ، والكتب المترجمة بعين إنصـاف ، ثم يجعل عقـله حكمـاً عـادلا (وفيصلا) قاطعا ، فعند ذلك يعـلم أنهـا شجرة باسقة الفـرع ، طيبـة المنبت ، زكيـة التربة ، يانعـة الثمـرة . (فمن أخـذ بنصيبه منهـا كـان على إرث من النبـوة) ومنهـاج من الحكمة ، لا يستوحش صـاحبه ، ولا يضـل من تمسك بـه .

---

(٥٥) حذفت تمهيـد المقدمة اكتفاء بذكـره كمثال لنثـر ابن عبد ربـه ص٣٢٩ من هـذا البحث .

٤ ــ وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنما لى فيه تأليف (الأخبار ، وفضل) الاختيار ، وحسن الاختصار وفرش فى صدر كل كتابه ، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء .

« ثم أخذ يفصل نقاط المنهج وخطواته على الوجه التالى » فقال :

(أ) الاختيار جهد صعب : « واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله ، وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : عقول الناس مدونة فى أطراف أقدامهم ، وظاهرة فى حسن اختيارهم » .

(ب) جمع النظائر وتأليفها لسهولة البحث : « فتطلبت نظائر الكلام ، وأشكال المعانى ، وجواهر الحكم ، وضروب الأدب ، ونوادر الأمثال ، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه ، فجعلته باباً على حدته ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره فى كل باب .

(ج) الدقة فى الاختيار : « وقصدت من جملة الأخبار ، وفنون الآثار أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظا ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة ، آخذاً بقول الله تبارك وتعالى : « **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** »(٥٦) .

---

(٥٦) سورة الزمر ــ آية ١٨ .

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون ..

وقال ابن سيرين : « العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه ، وفيما بين ذلك سقط الرأى » .

(د) تعليل لحذف الأسانيد : « وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والايجاز ، وهربا من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الاسناد باتصاله ، ولا يضرها ما حذف منها .

وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة ، وشريعة مفروضة ، فكيف لا نحذفه من نادرة شاردة ، ومثل سائر ، وخبر مستطرف ، (وحديث يذهب نوره إذا طال وكثر) .

حدث الحسن البصرى بحديث ، فقيل له : يا أبا سعيد ، عمن ؟ قال : وما تصنع بعمن يابن أخى ؟ أما أنت فنالتك موعظته ، وقامت عليك حجته » .

(هـ) فضل هذا الكتاب على ما سبقه : « وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرفة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً (شافيا) جامعا لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة . وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، تجانس الأخبار فى معانيها ، وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، خطاً من المنظوم والمنثور » .

(و) علة التسمية وتقسيمه إلى أبواب : « وسميته كتاب « العقد الفريد » لما فيه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة

السلك ، وحسن النظام ، وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً ، (و) قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد ، فأولها .. .. » أ.هـ.

دراسة وتحليل

(أ) المعجم اللغوى للنص :

أهل كل طبقة : جاء فى اللسان ، الطبقة : الجماعة يتماثلون ويتساوون ، وطبقات الناس : مراتبهم .

جهابذة كل أمة : الجهابذة ، جمع جهبذ (بكسر الجيم ، وسكون الهاء ، وفتح الباء) وهو : النقاد الخبير .

جواهر السالفين : الجوهر ، واحده جوهرة ، وهو كل حجر يستخرج منه ما ينتفع به ، وجوهر كل شيء : أصله .

ناكص متعقب : النكوص ، الرجوع ، ومتعقب : جاء بعده وقد بقى منه شيء ، والمراد : رجع إلى ما تركه الأول فعاد عليه بالتحسين والتجويد .

فرش : المراد به هنا : تمهيد وتقديم يمهد به لموضوع الكتاب .

وافد عقله : صادر عنه ، ومنبعث منه .

نظائر : نظير : شبيه أو مثيل .

النوادر : جمع نادرة ، ويقال للشيء الشاذ القليل .

أشرفها جوهراً : أشرفها : أعلاها وأرفعها مكاناً .

٢ ــ الأفكار الرئيسة للنص ٠٠ وقد تناول فيها :

اولا : جهود جهابذة الأدب ، وكبار علمائه فى تتبع مأثور السابقين عليهم ، وغيرهم بالجمع والانتقاء والاختيار مما جمع حتى دونوا من ذلك قدراً عظيماً يحتاج أن يختصر ويتخير منه ٠

ثانياً : رؤيته ــ من خلال الخبرة ــ أن المتأخرين من كل طبقة قد تفوقوا على من تقدمهم بوضوح الطريقة ، وعذوبة اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، لان الأول رائد ، والمتأخر متعقب لما صنع ٠

ثالثاً : واجب علماء عصره أن ينظروا فى ذلك بعين الانصاف والعدل ، وتحكيم العقل ، لأن العلم شجرة باسقة ، فمن كان له منها حظ فله حظ من النبوة ٠

رابعاً : تناول المؤلف منهجه فى تأليف كتابه ، وبين اشتماله على النقاط التالية :

١ ــ جهوده المتمثلة فى الجمع والاختيار وتأليف الأخبار بعد الاختصار المفيد ٠

٢ ــ فرش فى صدر كل كتاب ٠

٣ ــ جمع النظائر وتأليفها فى باب تيسيراً للبحث ٠

٤ ــ الدقة فى الاختيار قصداً الى أشرف المعانى ، وألطفها ، وأجملها أسلوباً ، ليكون وقع ما جمع حسنا على النفوس ٠

٥ ــ بيان وجهة نظره فى حذف أسانيد الأخبار التى جمعها ٠

٦ ــ تلافى النقص الذى لحظه فى الكتب المصنفة قبله فى موضوعه ، وجعل مؤلفه وافياً شافيا ٠

٧ ــ أردف الشواهد الشعرية بشواهد من شعره ، ليظهر الأثر الأندلسى فى كتابه ٠

٨ ــ تعليل لتسمية الكتاب وتقسيمه إلى أبواب .

وأخيراً يعمد ابن عبد ربه الى تقسيم كتابه الى كتب ؛ وهى تشبه الأبواب فى نظام تأليفنا لكنه تصوره عقداً منظوماً من خمسة وعشرين جوهرة فريدة ، لكل جوهرة اسم ــ كما بينا ــ فى تبويبه وتقسيمه عند الحديث عن منهجه سابقاً .

* * *

٣ ــ التعليق على النص

(أ) يمثل هذا النص المقدمة التى مهد بها المؤلف لكتابه ، بعد أن حذفنا منها الافتتاحية التى تتمثل فى : الحمد لله والثناء عليه تعالى المنفرد بالوحدانية ، والمستحق وحده للعبودية ، والذى لا تحيط به صفات البشر ، ولا تحويه أماكنهم .. ثم الصلاة والسلام على النبى المكرم الذى بعث آخراً ، واصطفى أولا ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ... ثم الدعاء أن يقبل الله عمله ، وأن يكون من أهل طاعته وطاعة رسوله ﷺ .

وهو تمهيد جليل القدر ، سلس الأسلوب ، عذب الألفاظ ، مختار التعبير ، يدل لى أدب رفيع ، وقد قدم راسخه فى البيان ، يستحق أن يقرأ لما فيه من تخير اللفظ ، وجميل العقل .

وقد أوردناه فى حديثنا عن أدب ابن عبد ربه كنموذج لنثره .

ثم يخلص الكاتب إلى الأفكار الرئيسة التى تضمنتها المقدمة ، والتى سبق بيانها .

(ب) يمثل أسلوب النص ، أسلوب ابن عبد ربه فى النثر ،

ويعطى صورة لـه ، وهـو ـ كمـا نـرى ـ أسلوب أدبى قـد جمـع بين الفـكرة من حيث الموضوع الذى تحـدث فيـه وهـو التمهيـد ، والتقديم لصنعه ، والوجدان من حيث ما يشيع فى جوانبه من عبـارات توحى بسروره وفخـره بكتابه ، وكـذا الأساليب الجميلة التى نسج بهـا مقدمته فجاءت غـاية فى الابداع والاقناع والامتاع •

وتلك عنـاصر الأسلوب الأدبى ، غـير أن الكاتب مـال بهـا نحـو التعقـل والمنطق ، ضرورة أنـه عـالم فلمسنا فيهـا مسحة علميـة •

(ج) الأفكار تدور حـول موضوعها فى تسلسل فكرى ومنطقى ، بحيث تسـلم كـل فكـرة الى تاليتهـا وترتبط بمـا قبلها • فبـدأ بالحمـد والثنـاء على الله ، والصلاة والسلام على رسـول الله ، ثم ثنى بجهود العلماء السابقين عليـه ، وأشـر من وليهم فى التجويد والتحسين ، ودعـا العلماء إلى التجـرد عند النظـر طلبـا للعـدل والنصفة ، ثم انتقـل الى المنهـاج الذى سـار عليه فى تأليفه ، ثم انتهى الى التقسـيم والتبـويب •

كل ذلك بأسلوب الأديب ، وفـكر العالم ودقته ، مع رغبة صادقة فى أن يبـرز عمـله فى صورة جـديدة وافيـة تليق بمكانه ، وليذكره بهـا من بعـده ••

(د) وابن عبد ربه أديب وعالم ، كثير المحفوظ من الشعر والنثر ، والحـكم والأمثال ، وأخبـار العـرب ونوادرهم وحكاياتهم ، مع حفـظ للقـرآن الكريم ، ووعى بـه ، والالمـام بالسـنة النبـوية المطهـرة ، ولذا يـرى كـل ذلك واضحاً فى كتـابه بصـفة عـامة ، وفى النص الذى معنـا بصـفة خاصـة •

● فمن الاستشهاد بالقرآن الكريم قوله تعـالى : « **الذين يستمعون**

القـــول فيتبعون أحســنه » ســاق الآية الكريمة للاستدلال على اختيــاره أشرف المعــانى والألفاظ .

• ومن الاقتباس من القــرآن : « يعلم أنهــا شجرة باسقة الفرع » من قــوله تعالى : « **والنخــل باسقات لهــا طلع نضــيد** » .

• ومن الاقتباس من السنة قــوله « ... كان على إرث من النبوة » أخــذاً من قول الرسول عليه السلام : « العلماء ورثــة الأنبياء » .

• ومن الاستدلال بالشــعر ، قــول الشــاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كــا ن دليلا على اللبيب اختياره

استدل بــه على قوله : « اختيار الرجــل وافــد عقله » ، أى دليلا على شخصيته .

• كمــا يظهــر أثــر المحفوظ فى تلك المأثورات التى يستدل بهــا على وجهته من أقــوال العلمــاء والأدبــاء والفقهــاء والمحدثين ، فنراه يستدل بأقــوال : يحيى بن خــالد ، وابن سيرين ، والمعتــابى . والشيبانى ، والأعشى ، والحســن البصر ، هــم وغيرهم فضــلا عن الشــعراء .

(هـ) وابن عبد ربــه أديب حــافظ ذو ثــروة لغــوية واســعة يرى أثرهــا فى كثــرة المترادفات من الألفــاظ والجمــل يوردها على معنى واحــد ليؤكده ، وليشيع فى نثــره جــواً من الموسيقى الهادئة الهادفة ، ولذلك ترى فيــه المحسنات العفوية وخاصة السـجع الذى تقتضيه العبــارة ويزيدها جمــالا وبهــاء دون أن يعانيه أو يأتى بــه قسـراً .

(و) وللخيــال نصيب فحديثه ، ولكن أكثــر ما تــراه « فى المقدمة » فى التشبيهات الرائعة التى يرى أثــر البيئــة الأندلسية

واضحاً فيها (كتشبيه الكتب بما حوت من علوم ومعارف وحكم ، بالشجرة الباسقة الطيبة المنبت) ، و (كتشبيه الحظ من العلم بميراث النبوة) وغير ذلك مما يدل على بيئته وميوله العلمية .

وعموماً فالنص الذى عرضناه قطعة فنية ترتفع بميزاتها وخصائصها فى سماء النثر الفنى ، فماذا أخذنا فى حسابنا أنها تمهيد وتقديم لكتاب « العقد الفريد » لأدركنا أن ابن عبد ربه قد سبق عصره ، وكأنه يعيش عصر مناهج المحدثين فى التأليف ، فمقدمته تربو على ما قررته مناهج التأليف الحديث بكل ما تتطلبه من عناصر وأفكار وقيم .

وعلى الله قصد السبيل ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

دكتور
عبد القادر رزق الطويل
مدرس الأدب والنقد بالكلية

ثبت بمراجع البحث ومصادره

ملحوظة : راعينا فى الترتيب أسبقية ورودها فى البحث ..

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ الحديث النبوى الشريف .

٣ ــ ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ــ تحقيق أحمد أمين ــ أحمد الزين ــ إبراهيم الابيارى ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٤ ــ د. عبد الحميد المسلوت ــ نظرية الانتحال ، دار القلم بمصر .

٥ ــ سيد أحمد الهاشمى ــ جواهر الأدب ، ج٢ المطبعة التجارية سنة ١٩٦٥ م .

٦ ــ د. شوقى ضيف ــ العصر الجاهلى ــ دار المعارف بمصر .

٧ ــ أحمد أمين ــ مقدمة للعقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٨ ــ ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ، ج ١ ، ط. التجارية .

٩ ــ ياقوى الحموى ــ معجم الأدباء ، ج ٤ ، ط. الحلبى .

١٠ــ جبرائيل سليمان غبور ــ ابن عبد ربه وعقده ، ط. البيان .

١١ــ جورجى زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال .

١٢ــ ابن المعتز ــ ديوان ابن المعتز ، ط. المحروسة بمصر .

١٣ــ أحمد حسن الزيات ــ تاريخ الأدب العربى ، ط. الرسالة .

١٤ــ افرام البستانى ــ بحث عن ابن عبد ربه ، سلسلة الروائع .

١٥ــ ابن شاكر الكتبى ــ الوافى بالوفيات ، سلسلة الروائع .

١٦ــ الثعالبى ــ يتيمة الدهر ، سلسلة الروائع •
١٧ــ السيوطى ــ بغية الوعاة •
١٨ــ الاعلام ــ الزركلى •
١٩ــ ابن النديم ــ الفهرست •
٢٠ــ د• طه حسين وآخرون ــ مقتطفات من كتب الأدب ، ج ٢ •
ط• دار المعارف بمصر •
٢١ــ المقرى ــ نفح الطيب •

وهناك مراجع وردت فى صلب البحث يمكن الوقوف عليها عند مراجعة البحث ؟